مقدمة

بلغ العالم الإسلامى فى القرون الأربعة الأولى شأواً بعيداً فى الخُلق والعلم والحضارة ، حتى كاد يكون سيد العالم فى هذا كله ، فخُلقُه فى حربه وسلمه قوى متين ، وعلمه قد استوعب ما عند الأمم الأخرى من هند وفرس ويونان وروم ، وهضمه كله ، ومزجه مزجاً جميلاً ، وبنى عليه ، وابتكر فيه ، وحضارته كانت خير الحضارات ، تزدهر مدنه كبغداد ودمشق والقاهرة والقيروان وقُرطبة بشتى ألوان الحضارة ، من علم وفن وعمارة وتجارة وصناعة ، حتى كان يُرْحل إليها جميعاً للأخذ عنها والاقتباس منها ؛ هذا إلى حرية فى العقيدة وحرية فى القول والعمل ، وهى حرية قلما كان يتمتع بها غيرهم من الأمم ، وكان ينعم بها كل من استظل بظلهم من نصارى ويهود ومجوس . على حين كان يشقى فى الشعوب الأخرى كل من خالف دينها واعتقد غير عقيدتها .

ثم بدأت فيه عوامل الضعف بعد ذلك ، وتوالت عليه الكوارث ، وتتابعت عليه الخطوب ، وكلما مرّ عليه زمن زاد ضعفه وبدا هُزاله . وكان أول ذلك ما دهمه من قبائل الترك الرحّالة ، وكانوا إذ ذاك معروفين بالغلظة والجفوة ، لا يحسنون إلا القتال من غير رحمة ، والفتك من غير روية ، لا علم ولا حضارة ولا معرفة بأساليب الحكم وقوانين السياسة . ومكّن لهم الخلفاء لحاجتهم إليهم ، حتى كانوا السيدَ المطاع والحاكم المستبد . وسرعان ما دخلوا فى الإسلام ولما يدخل الإيمان فى قلوبهم ، فلم يؤاخوا المسلمين بل استعبدوهم ، ولم يرحموهم ، بل نكّلوا بهم ، ولم يؤسسوا علماً ولا حضارة ، بل قضَوْا على العلم والحضارة .

وجاءت الحروب الصليبية فاكتسحت آسية الصغرى واستولت على بيت

المقدس ، وجنّدت أوربة الجيوش تلو الجيوش لهذا الغزو ، وتتابعت البعوث قروناً ، والعالم الإسلامى يبذل كل جهوده وقواه وموارده لدفع هذه النازلة ، حتى استنفدت ذكاءه وماله ومهارته وكل مقدرة له .

وفى القرن السابع الهجرىّ اكتسح المغول جزءاً كبيراً من العالم الإسلامى ، وعلى رأسهم جنكيزخان هذا الجبار المتمرد . ثم خلفاؤه من بعده مثل هولاكو ، ولم تكن غايتهم الفتح والاستعمار ، ولا الغنم والاستلاب فحسب ، بل كانت الفتك والتدمير أيضاً ، فحطموا بغداد وحضارتها وعلمها وفنها ، وكانت زينة العالم وبهجة الدنيا ، فذبحوا أهلها وخربوا عمرانها ، وأتلفوا جسورها وكل ما بها . وكانت نكبة بغداد نكبة العالم الإسلامى .

وفى أول القرن التاسع الهجرى زحف تيمورلنك ، فمثل دور جنكيزخان وهولاكو ، فذبح ودمّر وأتلف وخرّب ، ورمى العالم الإسلامى بكارثة عظمى ، ولمّا يستفقْ مما غشيه من النوازل قبلها .

ثم امتدت فتوح الأتراك العثمانيين ، فلم يكن حكم أكثرهم حكما صالحاً ، ولم يسوسوا الأمم سياسة عادلة . كانوا شجعاناً مقاتلين ولم يكن أغلبهم ساسة عادلين . عُنوا بالحرب أكثر مما عُنوا بالإدارة ونظم الحكم ، ومهَروا فى الفتح أكثر مما مهَروا فى إقامة صرح العلم ومتابعة السير بالحضارة ، فزاد العالم الإسلامىّ تدهوراً على توالى الأزمان . ظلمة حالكة ومحنة شاملة وجهل مطبق وظلم فادح وفقر مدقع .

هذا سائحٌ فرنسىّ زار مصر فى آخر القرن الثامن عشر — وهو مسيو ڤولنى Volney وأقام بها وبالشام نحو أربع سنوات — يقول : « إن الجهل فى هذه البلاد عام شامل ، مثلها فى ذلك مثل سائر البلاد التركية ؛ يشمل الجهل كل طبقاتها ، ويتجلى فى كل جوانبها الثقافية ، من أدب وعلم وفن ؛ والصناعاتُ فيها فى أبسط حالاتها ، حتى إذا فسدت ساعتك لم تجد من يصلحها إلا أن يكون أجنبيًّا » .

وهذه الحكومة المصرية تراها تخشى تعليم الرياضة والطبيعة ، فتستفتى شيخ الجامع الأزهر الشيخ محمداً الإنبابى : « هل يجوز تعليم المسلمين العلوم الرياضية كالهندسة والحساب والهيئة والطبيعيات وتركيب الأجزاء — المعبر عنها بالكيمياء — وغيرها من سائر المعارف ؟ » فيجيب الشيخ فى حذر : « إن ذلك يجوز مع بيان النفع من تعلمها » — كأن هذه العلوم لم يكن للمسلمين عهد بها ، ولم يكونوا من مخترعيها وذوى التفوق فيها .

كان العالم الإسلامى منعزلا ، لا يتصل بأوربة إلا فيما تعانيه تركيا من مشاكلها السياسية ، فليس هناك بين الشعوب الإسلامية والشعوب الأوربية اتصال فى الثقافة والعلم والصناعة ونظم الحكم ، يمهد لها الاستفادة منها والأخذ عنها . لقد أُغلقتْ على العالم الإسلامى الأبواب منذ الحروب الصليبية ، وأخذ يأكل بعضه بعضاً — وقف المسلمون فى علمهم ، فليس إلا ترديد بعض الكتب الفقهية والنحوية والصرفية ونحوها ؛ وفى صناعتهم ، فلا اختراع ، ولا إتقان للقديم ؛ وفى آلاتهم وفنونهم العسكرية ، فهى على نمط الأقدمين . وسكان المدن والريف قد أبعدوا عن الاشتراك فى الشئون السياسية والحربية ، فلا تراهم فى جيش ولا فى قيادة جيش ، ولا رأى لهم فى الحكم ولا فى السياسة ولا فى الإدارة ، إنما هم مزرعة الحكام ومستغَلُّ الولاة والأمراء ، كلما تفتحت شهواتهم فعلى الرعية أن يجدوا سبيلا لملئها بالمال يجمعونه من كدّ يمينهم وعرق جبينهم . مركز الخلافة — وهو الآستانة — مفكك منحل ، والولايات من مصر والشام والعراق والحجاز متدهورة متضعضعة ، قد أمات نفسها توالى الاستبداد عليها ؛ العلم فيها كتاب دينى شكلى يُقرأ ، أو جملة تعرَب أو متن يحفظ ، أو شرح على متن ، أو حاشية على شرح . أما علوم الدنيا فلا شىء منها إلا حساب بسيط يُستَعان به على معرفة المواريث ، أو قبس من فَلَكٍ قديم يُستَدل به على أوقات الصلاة .

والسياسة فيها نزاع مستمر بين الأمراء ، وكل أمير له حزبه ، وكل حزب يتربص الدائرة بخصمه ، والبلاد ضائعة بينهم ، والوالى لا يطيل المكث إلا ريثما يغتنى ، حتى أصبح اسم الحكومة والوالى والجندى مرعباً مفزعاً مقروناً فى النفس بمعنى الظلم والعسف .

وأعجب من هذا كله إلفُ الشعوب الإسلامية هـذه الحالة السيئة واستنامتها إليها ، وكراهيتها لكل إصلاح ؛ فإذا أريد إصلاح الجندية ثارت الانكشارية ؛ وإذا أريد إصلاح القضاء غضب العلماء .

وعلى الجملة فقد كان العالم الإسلامى — إذ ذاك — شيخاً هرِماً حطمته الحوادث ، ونَهَكه ما أصابه من كوارث . فساد نظام ، واستبداد حكام ، وفوضى أحكام ، وخمود عام ، واستسلام للقضاء والقدر ، وترديد لقول الشاعر :

دع المقادير تجرى فى أعنتها ولا تبيتنّ إلا خالِيَ البال

فقدَ الدين روحه ، وصار شعائرَ ظاهرية ، لا تمس القلب ولا تحيى الروح ، وسادت الخرافات ، وانتشرت الأوهام ، وأصبح التصوف ألعاباً بهلوانية ، والدين مظاهر شكلية ، ووسيلة النجاح فى الحياة ليست الجد فى العمل ولكن التمسح بالقبور والتوسل بالأولياء ، فهم الذين يُنجحون فى العمل وهم الذين يَنْصرون فى الحروب . والشوارع والحارات مملوءة بالدجالين والمشعوذين .

هذا هو الحال فى الشرق ، أما الغرب فلم يكن قد أصيب بكوارث الشرق ، وقد بدأت أوربة تستيقظ منذ الحروب الصليبية وتنشىء لها حضارة جديدة ، مؤسسة على العلم والحرية ، وتتقدم فى الصناعة ، ويتدفق عليها المال من اكتشافها أمريكا وغيرها ، وتخترع وترتقى فى النظم الحربية على أساليب جديدة ، وتنشىء الأساطيل الضخمة ، حتى إذا شعرت بقوتها هجمت على الشرق بآلاتها وأسلحتها واختراعاتها ، فتساقطت أقطاره فى يدها ، وكانت إذا دخلت قطراً ضغطت عليه بكل قوتها

واستغلته لمصلحتها ، وأجرت فيه الأمور على هواها ، فكان من جرّاء هذا الضغط أن أخذ وَعْيُ الشرق يستيقظ ، وطموحه يتوثّب . وكان من طبيعة هذا أن يتقدم الصفوفَ زعماء للإصلاح يشعرون بآلام شعوبهم أكثر مما تشعر ، ويدركون الأخطار المحيطة بها أكثر مما تدرك ، ويفكرون التفكير العميق فى أسباب الداء ووصف الدواء . وكل مصلح ينظر إلى المرض من زاويته ويدعو إلى مداواته على حسب خُطته ، فكان من ذلك مصلحون مختلفون دعَوا إلى الإصلاح فى أقطارهم على حسب بيئتهم وثقافتهم ومزاجهم . وكلٌّ قد أبلَى بَلاءً حسناً ، ولاقى من العناء ما لا يتحمله إلا أولو العزم ؛ فمنهم من شُرِّد ، ومنهم من قُتل ، ومنهم من رُمى بالخيانة العُظْمَى ؛ فمَنْ نادى بالمساواة فى العدل بين الرعيـة من غير نظر إلى جنس أو دين اتهم بمحاربة المسلمين ، ومن نادى بتنظيم الجيش على الأساليب الحديثة اتهم بالتفرنج والخروج على التقاليد ، ومن نادى بتأسيس مجلس شورى اتُّهم بمحاربة السلطان والحضّ على الثورة والعبث بالنظام ، ومن نادى بإصلاح العقيدة والرجوع بها إلى أصل الدين اتُّهم بالإلحاد ، وهكذا ؛ وهم على هذا صابرون مجاهدون ؛ أحبوا مبدأهم فى الإصلاح أكثر مما أحبوا الحياة ، ولم يعبأوا بالعذاب يَحيق بهم فى سبيل تحقيق فكرتهم ، وظلت آراؤهم تعمل عملها فى حياتهم و بعد موتهم ، حتى تحقّق إصلاحهم ونَفَذَت أفكارهم ، وتقدّم الشرق على أيديهم خطوات تستحق الإعجاب .

وكان من حقهم علينا أن نُحْيِيَ سيرتهم ، ونجدّد ذكرهم ، ونبين مبادئهم ؛ فربما جَهِل كثير من شباب الجيل الحاضر تاريخهم مع قرب العهـد بهم ، وتأثرنا فى حاضرنا ومستقبلنا بآرائهم وأعمالهم . والله الموفق ؟